

## مولد رسول الله ورضاعه

وأحواله إلى البعثة

(١) ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، بينه وبين الفيل خمسون ليلة ، والمشهور أن ميلاده كان لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول ، وعاليه عمل أهل مكة قديماً وحديثاً في زيارتهم موضع مولده في ذلك الوقت من كل سنة ، وذلك بالدار التي في زقاق المولد من شعب بنى هاشم بمكة ، وكانت لرسول الله ، فوهبها لعقيل بن أبي طالب ، فلم تزل بيده حتى توفي ، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج ، ولما حجبت الخيزران أم هرون الرشيد ، جعلت البيت الذي ولد فيه ، مسجداً للصلاة ، وما زال كذلك إلى اليوم .

وكانت قريش تؤرخ السنين بموت قصي لجلالة قصي ، فلما كان عام الفيل أُرخت به لاشتهار ذلك العام ، فكان تأريخهم حينئذ من مولد الرسول

وقد اتفق في سنة الميلاذ أن حدثت حوادث من أهمها (١) كثرة انقضاض الكواكب ، حتى أنكرت قريش هذا الحادث ، وقالوا ما هذا إلا لقيام الساعة ، (٢) زلزلت الأرض في جهات شتى زلزالاً شديداً سقطت به الأصنام التي حول الكعبة أو فوقها من مواضعها ، وتهدمت كنائس وبيع ، وارتجس إيوان كسرى ، وسقط من شرفاته أربع عشرة ، وخمدت نار فارس ولم تك خمدت قبل ذلك بألف سنة ، وغيض ماء بحيرة ساوة ، على اتساعها ، وصارت يابسة كأن لم يك بها

شيء من ماء ، حتى بنيت موضعها مدينة ساوة الباقية إلى الآن ، وان  
خربها كفتار التتر سنة ٦١٧ هـ

وقد اتخذ أهل القصص النبوية والسير والموائد هذه الحوادث  
وأمثالها مقدمة وارهاصاً أو معجزات للرسول ، وكذلك ما فعل الله  
بأصحاب الفيل ، ويقولون أن زمان النبوة صالح لاخوارق ؛

ويصح أن يكون كل هذا حدث ولا علاقة له أصلاً بميلاد النبي ،  
ولا بإرساله إلى الخلق ، فانقضاض الكواكب ما يزال جارياً يتمثل في  
الشهب التي تعمل بأنها أجرام صغيرة جداً تدور حول الشمس ، وتدخل  
في الهواء المحيط بالأرض فتشتعل من احتكاكها فيه ، وكالحجارة الضالة  
التي تقع من الجو على سطح الأرض ، وقد شوهد أنه يظهر في الجو  
قبل سقوطها كرات نيرة تفرقع بشدة ، وعلى أثر ذلك تقع هذه الحجارة  
وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٣٣ هـ أنه في الليلة الثانية

عشرة من ذي القعدة انقضت الكواكب من أول الليل إلى آخره  
انقضاضاً دائماً مسرفاً جداً لم يعهد مثله - فهل كانت ارهاصاً لا أحد ؟

وكتب مدير مرصد تورنتو بكندا أنه شاهد وقوع النيازك (الشهب)  
في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٠ ، وكانت كثيرة جداً حتى امتلأ بها الجو

وبقيت تساقط إلى الصباح وذعر الناس منها وظنوا انه دنا انقضاء  
العالم - كما ظنت قریش - فما أصل ذلك وما سره ؟ وهل كانت لميلاد أحد

الحق ان انقضاض الشهب أمر دوري ، له أزمته ، وله مواعيد

يعود فيها ، وأسباب يرجع إليها ، وقد أصبح علماء الفلك ينبئون بها قبل  
سقوطها ، كما ينبئون بخسوف القمر وكسوف الشمس قبل حدوثهما .

والزلازل لا تنقطع أخبارها، والعظيمة منها تحدث في وجه الأرض  
أحداثاً فظيعة جداً: فقد زلزلت آسيا الصغرى (مثلاً) في ٣٠ من  
سبتمبر سنة ١٨٩٩ زلزالا عنيفاً، خربت به مدن وقرى في بلاد مساحتها  
٢٥٠٠ ميل، وانفجرت من جرائه عيون ثائرة لا عهد للناس بها.  
فاغرقت ماحولها من الدواب وبعض الرعاة، وغاصت أخرى،  
وتصدعت مبان شتى، وتهدمت كنائس ومدارس ومساجد وبيوت  
كثيرة جداً.

ولعل ما حدث في سنة ميلاد رسول الله، كان مما يحدث بين آن وآخر  
في السماء أو في الأرض من الأحداث الطبيعية، فلا بأس من رجوعها  
إليها، وهو خير من تكلف جعلها ارهاصاً أو معجزة لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم.

(٢) أبواه ومربوه: والده عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم  
ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف  
ابن زهرة بن كلاب، ولم يك لها أخ ولا أخت كما لم يك لعبد الله ولا  
لآمنة ولد غير رسول الله

موت أبيه: - ولما تم لآمنة من حملها شهران، توفى عبد الله عن  
خمس وعشرين سنة، وكان قد رجع من غزوة صنعيف مع قريش لما رجعوا  
بتجارتهم ومروا ببيثرب (المدينة المنورة) فتخاف عند أخوال أبيه بني  
النجار، ومات ودفن هناك

وقد كفل رسول الله وهو في المهدي جده عبد المطلب، <sup>تختنه</sup>  
يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسماه محمداً، ودطار جالاً من قريش فحضرُوا

وطعموا ، فاما فرغوا من الاكل قالوا : ما سميت به ؟ فقال : سميتها محمداً ،  
فقالوا : رغبت عن أسماء آبائه ، فقال : أردت أن يكون محموداً في  
السماء لله ، وفي الأرض خلقة .

وقد فرح أبو طهب عم رسول الله بميلاده ، قالت له ثوبية :  
أشعرت أن آمنة قد ولدت غلاماً لا أخيك عبد الله ؟ فقال لها اذهبي  
فأنت حرة

أما المحمدون قبل رسول الله فلا يعرف في العرب من تسمى بهذا  
الاسم قبله إلا ثلاثة ، وقد آباؤهم على بعض الملوك ، وكان عنده علم من  
الكتاب الاول ، فأخبرهم بمبعث نبي في الحجاز وبقرب زمنه وباسمه  
الذي هو محمد .

وكان كل واحد منهم قد ترك زوجته حاملاً ، فنذر إن ولده ولد  
ذكر أن يسميه محمداً ، طمعاً في أن يكون هو النبي الذي سيبعث  
وهؤلاء المحمدون هم : محمد بن سفيان بن مجاشع التيمي ، جد الفرزدق  
الأعلى ، ومحمد بن بلال بن أحيحة الأوسي . وكان أحيحة زوج سامي  
بنت عمرو النجارية قبيل هاشم بن عبد مناف ، ومحمد بن حمران  
ابن ربيعة الجعفي ، وكان في عصر امرئ القيس بن حنجر ، وكان هذا  
يسميه الشويعر .

ولما تحدث الحزاة والكمهان بأن نبياً يبعث من العرب اسمه محمد ،  
سمى كثير غير هؤلاء أبناءهم بمحمد للغرض نفسه .

(٢) حديث رضاعه وفصاله - وقد التمس لرسول الله المراضع ،  
فكان مما كتبه الله في سابق حكمته أن نبية يكون رضيعاً حليلة السعدية

بنت أبي ذؤيب من سعد بن بكر بن هوازن  
روى ابن اسحق وغيره أنها قالت :

قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر ، فلتمس الرضعاء  
في سنة شهباء ، على أتان لي ومعى صبي لنا . . . فقدمنا مكة ، فو الله  
ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذ قيل  
إنه يتيم من الأب ؛ وذلك أنا كنا إنما نرجو المعروف من أبي الصبي ،  
فكنا نقول : يتيم ، ماعسى أن تصنع أمه وجدته ، فكنا نكرهه لذلك ،  
فو الله ما بقي من صواحي امرأة إلا أخذت رضيعا غيري ، فلما لم أجد  
غيره قلت لزوجي ( الحرث بن عبدالعزيز السعدي ، أدرك الإسلام  
وأسلم ) والله اني لا أكره أن أراجع من بين صواحي ليس معي رضيع ،  
لأنظلقن إلى ذلك اليتيم فلا أخذه ، قال : لا عليك أن تفعلني ، عسى  
الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت ، ثم أخذه بما هو عليه إلى أن  
جئت به رحلي ، فاقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ،  
وشرب أخوه حتى روى . . . فودعت النساء بعضهن بعضا ، وودعت أنا أم  
النبي ﷺ ، ثم ركبت أتانى وأخذت حمدا بين يدي . . . ثم مشيت حتى  
سبقت دواب الناس الذين كانوا معي ، وصاروا يتعجبون مني . . . ثم  
قدمنا منازل بني سعد ، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها ، فكانت  
غنمي تروح علي حين قدمنا به شباعا لبنا ، ( كثيرة اللبن ) فنحلب ونشرب  
وكانت الشباة أخته من الرضاعة تحضنه وترقصه وتقول :

هذا أخ لي لم تلده أمي      وليس من نسل أبي وعمي  
فديته من نحولٍ معهم      فإنه اللهم فيما تنمي

أما التماس الرضاع بالأجر، فلم يكن محموداً عند أكثر نساء العرب حتى جرى المثل: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها؛ وكان عند بعضهم لا بأس به، بل لقد جرت عادة نساء القبائل التي حول مكة ونواحي الحرم بأنهن يأتينها في كل عام مرتين ربيعاً وخريفاً للرضعاء، يذهبن بهن إلى بلادهن حتى تتم الرضاعة.

وأما دفع الأبناء إلى المراضع فكان من عادة نساء قريش لا غرض منها (١) أنهن كن يرين رضاع أولادهن حاراً، لأنه قد يدل على الفاقة (٢) أن يتفرغن إلى الأزواج، وربما كان ذلك رجاء كثرة النسل (٣) أن ينشأ الولد في الأعراب، فيكون أنجب، ولسانه أفصح، كما في الحديث: أنا أعربكم، أنا من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر، وكانت مشهورة في العرب بالكمال وتام الشرف، وكانت بلادهم معروفة بطيب الهواة وعذوبة الماء.

وذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرت بناحب الوليد، لأن الوليد كان لحانا وكان سليمان فصيحاً، لأن الوليد أقام مع أمه (في دمشق) وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا ثم أدبوا فتأدبوا.

قالت حلیمه: فلما فصَلتُه بعد عامين، قدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكنته فينا، لما نرى من بركته، فكلمنا أمه فقلنا لو تركتیه عندنا حتى يغلظ، فانا نخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى ردتہ معنا فرجعنا به.

هذا وقد أجمع أهل السير على حديث شق بطنه وهو عند رابته

ومرضعته مرة ، ثم حصل له بعد ذلك مرات ، وقد حدث رسول الله  
أبا ذر الغفاري بعد البعثة بهذا الحديث وقال في آخره : وكانني أرى  
الأمر معاينة

ورجح أهل السير أن هذا لم يك خاصاً برسول الله ، بل إنه حصل  
للأنبياء جميعاً .

قالوا والحكمة في شق صدره وهو عند ظئره ، تطهيره عن حالات  
العصيا حتى يتصفى في سن العيبا بأوصاف الرجولة ، ولذلك نشأ على  
أكمل الأحوال من العصمة .

قيل : فما باله لم يخاق كاملاً مكملًا لا يحتاج الى عملية جراحية  
تستأصل بعض ما في بطنه من علة ، وأجيب بأن هذه العلة من  
تكلة الخلق الانساني ، فلا بد منها لكل كائن حي ، وإخراجها بعد  
خلقها ، أدل على عظيم الرعاية ومزيد العناية ، من خلقه بدونها ، قالوا ولو  
خلق بدونها ما أطلع الخالق على اختصاص الخالق رسوله بهذه العناية ،  
فاظهرها على يد ملائكته ليتحقق كمال باطنه كما وضح كمال ظاهره .

قالوا : وحكمة تكرارها : الزيادة في الأكرام والمبالغة في الأسباب  
ليتناهب للمناجاة ، ويستعد لتلقى الوحي في أكل الأحوال من التطهير  
قالت حليلة : فوالله انه لبعده مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع  
أخيه من الرضاعة ، لني بهم لنا خاف بيوتنا ، جاء أخوه يشتد ، فقال  
ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأصجعاه وشقا  
بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه ، فنجد قائماً منتقماً لونه ، فاعتنقه  
أبوه ، وقال أي بني ماشأئك ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض

وشقها بطاني ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ، ثم رداه كما كان .  
قالت : فرجعناه معنا ، فقال أبوه : يا حليمة ، قد خشيت أن  
يكون ابني قد أصيب ، فانطقتي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به  
ما نتخوف ، قالت : فاحتملناه حتى قدمنا به مكة على أمه ، فقالت  
مارد كما به ، فقد كنتم حريصين عليه ؟ قنا نخشى عليه الاتلاف  
والاحداث ، فقالت ماذا ؟ فاصدقاني شأنكما ، فلم تدعنا حتى أخبرناها  
خبره . . . . . قالت فدعاه عنكما

وسياق القصة يدل على أنه صلى الله عليه وسلم رجع إلى أمه في الثالثة ،  
والأكثر على أنه كان إذ ذاك ابن خمس أو ست .

هذا ولم تره حليمة بعد ماردته إلى مكة ، إلا مرتين احداها بعد  
نزويجه خديجة ، جاءتة تشكو اليه السنّة ، وان قومها اسئلتوا كلهم ،  
فكلم خديجة فاعطتها عشرين من الغنم وبكرات : والثانية يوم حنين ،  
على أن التي لقيته يوم حنين أخته الشيماء ، ولها معه حديث يأتي .  
وكان رسول الله بعد عودته من بلاد بني سعد ، مع أمه في كلاءة الله  
وحفظه ، يلبته نباتا حسنا .

موت أمه :- ولما بلغ صلى الله عليه وسلم ستا أو أكثر ماتت أمه آمنة بالابواء ،  
وكانت خرجت به إلى أخوال جده بنى عدى بن النجار بالمدينة تزيره  
أيام ، ومعها أم أيمن بركة الحبشية ( كانت لأبيه أولامه ، أسامت  
قديما وهاجرت الهجرتين ) فنزلت به دار رجل من بنى عدى اسمه  
التابعة ، فأقامت به عندهم شهرا ، ثم رجعت به إلى مكة ، فلما كانت  
بالابواء توفيت ، فرجعت به أم أيمن فكانت دايته وحاضنته بعد أمه ،

وكان رسول الله يعظمها ويرعاها ويقول لها أنت أمي بعد أمي ، وكفله جده عبد المطلب فضمه اليه ، وورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام ، ويجلس على فراشه من دون أولاده ، وكان يوضع لجده فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك متى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد منهم ، إجلالا له ، فكان رسول الله يأتي حتى يجلس عليه ، فيأخذ أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى مني ذلك : دعوا ابني ، ويمسح على ظهره بيده ويقول : ان لابني هذا شأننا .

ولما بلغ رسول الله ﷺ الثامنة ، مات جده عبد المطلب ، فكفله عمه أبو طالب ، بوصية من عبد المطلب ، فقد أوصى اليه برسول الله وسقاية زمزم ، وأوصى إلى الزبير بالحكومة وأمر الكعبة ، وقد أنشدوا رجزاً لعبد المطلب يوصى فيه أبا طالب برسول الله وهو :

أوصيك يا عبد مناف بعدي بمفرد بعد أبيه فرد  
فارقه وهو ضجيع الهدى فكنت كالأم له في الوجد  
تدنيه من أحشائها والكبد فأنت من أرجى بني عندي

لدفع ضيم أو لشد عقد

فكان أبو طالب يحبه حبا شديداً ، لا يحب أولاده كذلك ، ولا

ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج به متى خرج .

وقد قاسمته في تربية رسول الله امرأته فاطمة بنت أسد بن هاشم أم أولاده جميعا ، ويروى أنها لما ماتت قال رسول الله : اليوم ماتت أمي وكفنها بقميصه ، ونزل قبرها واضطجع في لحدها

(٣) سفره إلى الشام أول مرة

والما بلغ رسول الله اثنتي عشرة سنة ، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام ، ذلك أن أبا طالب لما نهياً للرحيل صبَّ به رسول الله ، فرقَّ له أبو طالب ، وقال : والله لا أخرجن به معي ، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً ، فخرج به معه حتى بلغ بصرى ، مدينة حوران ، فرآه بحيرا الراهب ، وكان إليه علم النصرانية ، واسمه جرّجيس ، كان نصرانياً من عبد القيس ، وقيل كان حبراً من أحبار يهود تيماء ، وكانوا كثيراً ما يعرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته ، صنع طعاماً ، وأرسل إليهم أن احضروا كأكيم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحرّمكم ، فقال له رجل منهم : والله يا بحيرآ إن لك اليوم لشأنا ، ما كنت تصنع بنا هذا وقد كنا نمر بك كثيراً فاشأناك اليوم ؟ قال له بحيرآ صدقت ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم — لحداثة سنه — في رحلهم ، وقالوا ما تخلف عن طعامك أحد ينبغي له أن يأتيك الاغلام أحدث القوم منا ، فقال لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر معكم .

فقال رجل من قريش : إن كان لأوماً بنا أن يتخلف ابن عبد الله ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، فقام عمه الحرث بن عبد المطلب فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، وجعل بحيرا يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره ، ويخبره ﷺ فيوافق ذلك ما عند بحيرا في صفتة التي عنده ، فاما فرخ أقبل على عمه فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال ابني

قال ماهو ابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال فانه ابن أخي ، قال فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى ، قال صدقت. فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه من اليهود ، فوالله لأنزراؤه وعرفوا منه ما عرفت ، ليبغنه شرأ ، فانه كأن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلادك ، فخرج به أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة ، بعد أن فرغ من تجارته بالشام. فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفا عليه ومما سبق نرى أن رسول الله ﷺ شب في كنف جده ، وترعرع في كنفه عمه ، الذي ظل يحافظ عليه ، والله يكاؤه ، ويحوطه من أمور الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كن رجلا ، أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم حوارا ، وأعظمهم حملا وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال

### شهو ده حرب الفجار الآخرة

كانت هذه الحرب بين قريش وكنانة كلها ، وبين هوازن ، وإنما هاجها البراض بن قيس (أحد بني صنمرة بن بكر بن عبدمناة بن كنانة) بقتله عروة الرحال (أحد بني بكر بن هوازن) فأبت هوازن أن تقتل بعروة البراض ، لأن عروة سيد هوازن ، والبراض خليم من بني كنانة ، وأرادت ان تقتل به سيداً من قريش

وهذه الحرب كانت قبل مبعث النبي ﷺ بست وعشرين سنة وقد شهدها وهو ابن أربع عشرة سنة ، وقال : كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار ، يعني أناولهم النبيل : وفي رواية قال : قد حضرته مع عمومتى

ورميت فيه بأسمهم ، وما أحب أني لم أكن فعلت .  
وكان سبب هذه الحرب أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، كان  
يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة في جوار رجل شريف من  
أشراف العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك ، ويشتري له بمنها  
من أدم الطائف ما يحتاج اليه ، فجزع غيراً للطيمة ثم قتل من يجيرها؟  
فقال البراض : أنا أجيرها على بني كنانة ، فقال النعمان : ما أريد إلا رجلاً  
يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال عروة الرحال ، وهو يومئذ رجل  
هو ازن : أكب خليع يجيرها لك أبيت اللعن ؟ أنا أجيرها لك على  
أهل الشيعة والقيصومة من نجد وتهامة (الشيعة والقيصومة موضعان  
بنجد شرق فيد) ، فقال البراض : أعلى كنانة تجيرها يا عروة ؟ قال :  
وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة فخرج بها ، وتبعه البراض ،  
وعروة لا يخشى منه شيئاً لأنه كان بين ظهرائي قومه من غطفان ، إلى  
جانب فدك ، إلى أرض أو آرة التي نزلها عروة فشرب وغنته قينته ،  
ثم قام فنام ، فجاءه البراض فدخل عليه ، فناشده عروة ، وقال  
كانت مني زلة ، وكانت الفعلة مني صنلة ، فقتله وخرج فاستاق  
اللطيمة إلى خيبر ، وأتبعه رجلان من غطفان وغني حتى دخلا خيبر ،  
فكان البراض أول من لقيهما ، فقال لهما من الرجلان ؟ فقالا من غطفان  
وغني ، قال البراض ما شأن غطفان وغني بهذه البلدان ؟ قالوا ومن أنت ؟  
قال من أهل خيبر ، قال ألك علم بالبراض ؟ قال دخل علينا طريداً خليعاً ،  
فلم يؤوه أحد بخيبر ، ولا أدخله بيتاً ، قال فأين يكون ؟ قال وهل لك  
به طاقة إن دلتك علىه ؟ قال نعم ، قال فانزلا فنزلا وعقلا راحليتهما ،

قال فايكما أجزأ عليه ، وأمضى مقديما ، وأحد سيفا؟ قال الغطفاني :  
أنا ، فال البراض : فانطاق أدلك عليه ، ويحفظ صاحبك راحلتيكما ،  
ففعل ، فانطاق البراض يمشى بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة  
في جانب خيبر خارجة عن البيوت ، فقال البراض : هو في هذا الخربة  
واليها ياوى ، وما زال يحتمل عليه حتى أخذ منه سيفه فقتله به وخبأ السيف  
خلف الباب ، وعاد إلى الغنوي يقول : لم أراجن من صاحبك ، تركته  
قائما في الباب الذي يدخل فيه الرجل ، والرجل نائم ، لا يتقدم إليه  
ولا يتأخر عنه ، قال الغنوي يلهفاه ! لو كان أحد ينظر راحلتينا؟ قال  
البراض : ها على إن ذهبتا ، فانطلق الغنوي والبراض خلفه ، حتى اذا  
جاوز الغنوي باب الخربة ، أخذ البراض ذلك السيف ثم ضربه به حتى  
قتله ، وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ،

وبلغ قريشا خبر البراض بسوق عكاظ ، فخلصوا نجيا ، وأتبعتهم  
هو ازن : لما بلغهم أن البراض قتل عروة . فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ،  
فنادوهم : يا معشر قريش ، إنا نعاهد الله ألا نبطل دم عروة الرحال أبدا ،  
وتقتل به عظيما منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل ،  
فقال حرب بن أمية لابي سفيان ابنه قل لهم : إن موعدكم قابل في  
هذا اليوم ، فكانت بينهم أيام خمسة في أربع سنين آخرها يوم الحريرة ،  
وهي حرة إلى جنب عكاظ ، ثم تداعى الناس إلى السلم على أن يذروا  
الفضل ويتعاهدوا ويتوائفوا .

روى أن عتبة بن ربيعة - وكان يتيما في حجر عمه حرب بن أمية  
ممن به وأشفق من خروجه معه إلى ميدان الحرب - خرج فلم يشعروا

به الا وهو بين الصنفين على بعيره ينادى يامعشر مضر ، علام تقاتلون؟ فقالت هو ازن : ما الذي تدعو اليه ؟ فقال : الصالح ، على اذن تدفع اليكم دية قتلاكم ، ونعفو عن دمائنا ، قالوا وكيف ؟ قال . ندفع اليكم رهننا منا ، قالوا ومن لنا بهذا ؟ قال : أنا ، قالوا ومن أنت ؟ قال عتبة بن ربيعة بن عبدشمس ، فرضنوا ، ورضيت كنانة ، ودفعوا إلى هو ازن أوبعين رجلا ، فيهم حكيم بن حزام بن خويلد ، فلما رأت عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هو ازن ، الرهن في أيديهم ، عفوا عن الدماء واطاقوهم . وعتبة هذا أبو هند بنت عتبة وأخو شيبه بن ربيعة ولهم أخبار تأتي في الغزوات .

### شهادة حلف الفصول

تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجردوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ، الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وكان أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب ، ولا يعلم أحد سبق بنو هاشم به ، حضره رسول الله ﷺ وقد جاوز العشرين ، وقال بعد ما بعثه الله : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حانفا ما يسرني به حجر النعم ، ولو دُعيت اليه اليوم لأجبت ، يريد لو قال قائل من المظلومين : يا لحلف الفضول لأجبهته ، ذلك أن الاسلام إنما جاء باقامة الحق ونصرة المظلومين فلا يزيد هذا الحلف الا قوة ، ويؤخذ منه تخصيص أهل هذا الحلف وخدمهم بالدعوة وإظهار التعصب إذا خافوا ضياع الاسلام قد رفع ما كان في الجاهلية من قولهم يا فلان عند التحزب والتعصب

إلا ما كان من حاف الفصول ، فحكمه باق ، والدعوة إليه جائزة :  
وكان أول من تكلم به ودعا إليه ، الزبير بن عبد المطلب ، وكان  
سببه أن رجلا من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصي بن  
وائل ( أبو عمرو بن العاص ) ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه  
حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الاحلاف — وهم بنو عبد الدار وبنو  
مخزوم وبنو جمح وبنو سهيم وبنو عدي بن كعب — فأبوا أن يعينوه  
على العاصي وانتهروه ، فلما رأى الشر ، أوفى على أبي قبيس عند طلوع  
الشمس ، وقريش في أيديهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته .

يا آل فهر لمظلوم بضاعته      يبطن مكة نأى الدار والنفر  
ومحرم أشعت لم يقض عمرته      يال للرجال وبين الحجر والحجر  
إن الحرام لمن تمت كرامته      ولا حرام لشوب الفاجر القدر  
الحرام - الاحترام :

فأما سمعوه قام الزبير فقال : ما لهذا مُتْرَك ، فاجتمعت هاشم وزهرة  
ويتم بن مرة ، في دار عبد الله بن جَدعان ، فصنع لهم طعاما ، وتحالفوا  
في ذى القعدة في شهر حرام قياما ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ، ليكون  
يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي له حقه ، ما بل بحر  
صوفة ، ومار ساحراء وثبير مكنهما ، وعلى التأسى في العاش ، ثم مشوا  
الى العاصي ، فاتزعوا منه ساعة الزبيدي فدفعوها إليه - وقال الزبير  
في ذلك .

إن الفصول تحالفوا وتعاقدوا      الأيقيم ببطن مكة ظالم  
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا      فالجار والمعتز فيهم سالم

الجار - المستجير ، المعتز - المعترض للمعروف من غير أن يسأل .  
وروى أن رجلاً من خشمهم قدم مكة معتمراً أو حاجاً ومعه بنت  
له من أضواء نساء العالم ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج السهمي . فقال  
من يُعديني على هذا الرجل ( بعيني ) ؟ ف قيل له عليك بحالف الفضول ،  
فوقف عند الكعبة ونادى : يا حالف الفضول ، فإذا هم يُعنتقون اليه  
من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فمالك ؟  
فقص عليهم القصة فذهبوا الى نبيه فأخرجها اليهم .

وكان بين الحسين بن علي وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان  
( أمير المدينة من قبل معاوية ) منازعة في مال كان بينهما بذي المروة .  
فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه ، فقال له الحسين :  
أحلف بالله لتنصفني من حقي ، أو لا آخذنَّ سيفي ، ثم لا أقوم في  
مسجد رسول الله ﷺ ، ثم لا أدعون بحالف الفضول ، فقال عبد الله  
ابن الزبير - وهو عند الوليد حين قال له الحسين بما قال - : وأنا  
أحلف بالله لأن دعاه لا آخذنَّ سيفي ، ثم لا أقوم معه حتى ينصف من  
حقه أو نموت جميعاً . وبلغت المسور بن مخرمة الزهري فقال مثل  
ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان التيمي ، فقال مثل ذلك . فاما بلغ ذلك  
الوليد ، أنصف الحسين من حقه حتى رضي .

### شهوده بناء الكعبة

وضع رسول الله ﷺ الحجر الأسود في موضعه حين اختصمت قريش فيه وسكته فحكم بما أَرْضَاهُمْ جميعاً ، وكان إذ ذاك ابن خمس وثلاثين سنة .

وبيان ذلك أن قريشا هدمت الكعبة ، لسيل أصابهم فهدمها ، أول نار أصابت ثيابها فأحرقتها ، أولانها كانت فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وإنما كانت رَضْمًا ( الرضم صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض في الابنية ) ليس فيها مَدَرٌ ، فنقضوها ،

وكان أول من ضرب فيها بمعول : الوليد بن المغيرة المخزومي ، وذلك حينما هاب الناس هدمها ، وقر قوامته ، فقال أناأُ بدؤكم في هدمها ، فأخذ المعول ثم قام وهو يقول : اللهم لم تُرَاع ( لم تُفزع الكعبة ) اللهم لا تريد إلا الخير ، ثم هدم وهدم الناس معه ، حتى انتهى الهدم إلى الأساس أساس ابرهيم ، ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، وكانت كل قبيلة تلي طائفة منها ، فكانت بنو عبد مناف تلي الربع . وسائر ولد قصى وبنو تيم الربع ، وبنو سهم وجميع وعدي وطامر بن فهر الربع ، وبنو مخزوم وقبائل من قريش الربع ، وهو الركن اليماني ، وحضر رسول الله ﷺ بناؤها وكان ينقل الحجارة من أجياد معهم

فلما بلغ البناء موضع الحجر وأرادوا أن يضعوه ، اختصموا فيه وقالت كل قبيلة نحن نتولى رفعه الى موضعه ، ومكث النزاع على هذا بينهم أربع ليال أو خمس ، وأعدُّ والقتال ، ثم اجتمعوا في المسجد الحرام

وتشاوروا وتناصفوا ؛ وقال أبو أمية بن المغيرة المخزومي ( أخو الوليد أبي خالد ) وهو إذ ذاك أسن قريش وأحد أجوادها : يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ؛ فأقبل رسول الله ﷺ ، فلما رأوه مقبلا ، قالوا قد رضينا بحكم محمد بن عبد الله ، وكانت قريش تسميه - قبل أن ينزل عليه الوحي - الأمين ، وكانوا يتحاكمون اليه في الجاهلية ، لأنه عرف بأنه لا يدارى ولا يمارى ( المداراة ، مدافعة الحق ، والمداراة ، المدافعة بالتي هي أحسن ) فأخبروه ، فحكم بينهم أن يجعلوه في ثوب ؛ ثم يرفعه من كل قبيلة رجل ؛ وأمر بشوب أو بسط ردائه ؛ ثم وضع الحجر في وسطه وقال : لتأخذ كل قبيلة بجانب من الرداء ، ثم ارفعه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا باخوا به موضعه أخذ رسول الله ووضعه بموضعه الذي هو به ؛ وصاح صائح يامعشر قريش ؛ أقد رضيتم أن يضع هذا الركن - وهو شرفكم - غلام يتيم دون ذوى أسنانكم ؟ فكاد ينير شرايبهم ولكنهم سكتوا واشتغلوا بالبناء حتى رفعوا الكعبة ثمانية عشر ذراعاً وسقفوها ولم يكن لها قبل ذلك سقف ؛ قيل جاءوا بخشب السقف من سفينة القتها الريح بجدة فتمطمت ؛ وكانت لقيصر الروم ؛ يحمل له فيها الرخام والخشب والحديد ؛ سرحها مع باقوم الروم الى الكنيسة التي حرقها الفرس للحبشيان ، فخرج اليها الوليد بن المغيرة ( ابو خالد ) في نفر من قريش فاشتروا خشبها وجاءوا بباقوم وقالوا لها ابنها على بناء الكنائس ؛ وكان في مكة مولى لسعيد بن العاص يسمى باقوم القبطى فاشترك مع باقوم الروم في بنائها وسقفها .

## رَعِيَّتُهُ الْغَنَمُ

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما بعث الله نبيا إلا راعى غنم ، فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا ، رعيتهما لأهل مكة بالقراريط يعني ، كل شاة بقيراط ، وقيل أن القراريط ناحية من نواحي مكة ، وليست قراريط الفضة والذهب

قال أهل السير في بيان حكمة الله في هذا الموضوع : إن الرجل إذا استرعى الغنم التي هي أضعف البهائم ، سكن قلبه اللطف والرأفة فاذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هُذَّب من الحدة الطبيعية والظلم الفرزي ، فيكون في أعدل الأحوال .

## سفره الى الشام مرة أخرى

ثم خرج ﷺ إلى الشام مرة ثانية - وسبب ذلك أن أبا طالب قال : يا بن أخي ، أنا رجل لامل لي ، وقد اشتد الزمان عاينا ، وأحلت سنون منكورة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما بلغها عنك من طهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتي الشام ، وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد من ذلك بدئا ، فقال ﷺ : لعلمها ترسل إلى في ذلك ، فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرا مذبورا ، فبلغ خديجة ما كان من محاوره عمه له ، كما بلغها من قبل صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، فقالت : ما علمت أنه يريد هذا ، وأرسلت إليه وقالت : دعاني إلى البعث اليك ما بلغني من كذا وكذا ،

وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك ، فذكر ذلك لعمه ، فقال  
إن هذا لرزق ساقه الله اليك

وكانت خديجة بنت خويلد هذه تاجرة ذات شرف ومال كثير ،  
وتجارة تبعث بها الى الشام فتسكون غيرها كعمامة قريش ، وكانت  
تستأجر الرجال وتدفع اليهم المال مضاربة ، وكانت قريش قوما تجاراً ،  
ومن لم يكن منهم تاجراً فليس عندهم بشيء . فلما خرجت عيرهم الى  
الشام خرج فيها رسول الله ﷺ في مال خديجة ومعه ميسرة غلامها  
حتى وردت العير سوق بصرى ، فنزلوا عند صومعة بحيرا ، ونزل  
رسول الله تحت ظل شجرة في السوق قريباً من الصومعة ، وكان فيها  
راهب من رهبان الشام يسمى نسطورا ، فاطلع الى ميسرة — وكان  
يعرفه — فقال يا ميسرة ، من هذا الذي تحت الشجرة ؟ فقال : رجل  
من أهل الحرم ، فبشّر بنبوته — ثم حضر رسول الله سوق بصرى  
فباع سلعته التي خرج بها واشترى ، وكان بينه وبين رجل اختلاف في  
سلعة ، فقال الرجل : أحلف باللات والعزى ، فقال : ما حلفت بهما  
قط ، فقال له الرجل : القول قولك ، وقال لميسرة — وخلا به —  
هذا نبي ، والذي نفسي بيده هو النبي الذي تجده أحبارنا منعوتنا في  
كتبهم .

ثم انصرف أهل العير جميعا ، وكان ميسرة يعي كل ما يشاهده  
من أحوال رسول الله ، وما يراه من تكريم الله إياه ، وعنايته به . ومزيد  
رعايته في حله وترحاله ، وبيعه وشرائه — فلما دخل مكة أخبر خديجة  
بكل ما رأى ، ثم دخل عليها رسول الله ﷺ فأخبرها بما ربحوا ،

فَأَضَعَتْ لَهُ مَا كَانَتْ سَمَّتَهُ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ مَعَ مَا جَاءَهَا عَنْهُ مِنْ أَخْبَارٍ أُخْرَى ، سَبَبَ عَرْضِهَا نَفْسَهَا عَلَيْهِ بِإِلَاحِاطَةٍ أَوْ بِهَا عَلَى مَا سَتَرِي .

### زواجه خديجة

روى أن خديجة قالت لرسول الله ﷺ : يابن عمي ، إني قد قد رغبت فيك لقرابتك ومِسْطَاتِكِ فِي قَوْمِكَ وَأَمَانَتِكَ وَحَسَنِ خَلْقِكَ وَصِدْقِ حَدِيثِكَ

وروى عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة امرأة حازمة جليلة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، وقد طلبوها وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتني ديسا إلى محمد بعد أن رجع في غيرها من الشام ، فقلت يا محمد ، ما يمنعك أن تزوج ؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به ، قالت فان كفتك ذلك ، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال فن هي ؟ قلت خديجة ، قال وكيف لي بذلك ؟ قلت علي ، فقال افعل ، فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا . فذكر ذلك لأعمامه .

وروى أيضا أن عمار بن ياسر قال : أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد ، كنت صديقا له ، فانا لنمشي يوما بين الصفا والمروة ، إذ بخديجة بنت خويلد وأختها هالة ، فامارت رسول الله جاءني هالة فقالت يا عمار ، أما لصاحبك حاجة في خديجة ؟ قلت والله ما أدري ، فرجعت فذكرت ذلك له فقال : ارجع فواضعها ( وَاَفْقَهَا ) وواعدها يوما نأتيها فيه ، ففعلت ، فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمها عمرو

ابن أسد ، وجاء رسول الله في نفر من أعمامه تقدمهم أبو طالب  
فخطب فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع اسماعيل ، وصنّضىء  
( معدن ) معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حَضَنَةَ بيته وسواس حرمه ،  
وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس - ثم أن  
ابن أخى هذا محمد بن عبد الله ، من لا يوزن برجل إلا رجح به ، شرفا  
ونبلا وفضلا وعقلا ، فان كان في المال قل ، فان المال ظل زائل ، وأمر  
حائل ( لا بقاء له لتحوله ) ، وعارية مسترجعة ، ومحمد ممن عرفتم قرابته ،  
وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا وكذا  
( كن اثنتي عشرة أوقية ونشأ ، والنش نصف أوقية ، وكانت الاواق والنش  
من ذهب ) ويروى : وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل  
ذلك وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل جسيم ، فلما أتم  
الخطبة تكلم ورقة بن نوفل بن أسد فقال :

الحمد الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عدت ، فنحن سادة  
العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيبة فضلكم ، ولا  
يرد أحد من الناس نخركم وشرفكم ، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم  
وشرفكم ، فاشهدوا على معاشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت  
خويلد ، من محمد بن عبد الله ، وذكر المهر .

فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشرّكك عمها ، فقال عمها  
( عمرو بن أسد ) اشهدوا يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله  
خديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صنناديد قريش ، وهذا يدل على

أن أباهما خويلد لم يحضر ، إذ كان قد مات قبل ذلك بمدة ، وهو الأصح  
ولما تم الأمر ذهب رسول الله ليخرج ، فقالت له إلى أين  
يا محمد؟ ، اذهب وانحر جزورا أو جزورين ، وأطعم الناس ، ففعل ،  
ودخل فقال معها ، فأقر الله عينه ، وفرح أبو طالب فرحا شديدا ،  
وحمد الله حمدا كثيرا

وكانت خديجة قبل رسول الله تحت أبي هالة التيمي ، وقد ولدت  
له ولدا ذكرا اسمه هند ، الصحابي الذي شهد بدرًا ، وكان الحسن بن  
علي يقول حدثني خالي ويريده ، لأنه أخو فاطمة لامها ، وكان له هند  
أخ من خديجة اسمه هالة بن أبي هالة وله صحبة - ولما مات أبو هالة  
تزوجها عتيق بن عابد المخزومي ، فولدت له بنتا اسمها هند ، وولدا اسمه  
عبدمناف بن عتيق

هذا - وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي  
ابن كلاب ، أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، لم يتزوج قبلا ولا عليها  
حتى ماتت ، بعد أن أقامت معه أربعًا وعشرين سنة ، وكانت تسمى في  
الجاهلية والاسلام ، الطاهرة ، وقد ولدت له أولاده جميعا ، إلا إبراهيم  
فكان من مارية القبطية ،

وسبق خديجة وتأثيرها في أول الاسلام وموازرتها ونصرتها ،  
وقيامها لله ، بما لها ونفسها ، لم يشركها فيه أحد ، لا عائشة ولا غيرها  
من أمهات المؤمنين

وبعد فالغرض من سرد هذه الفصول أن نبين أن رسول الله  
منذ ولد إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين ، نشأ بين ظهراني قومه ، فرَبَّوه

على عاداتهم في تريبب أبنائهم حتى أدرك ، ثم شب وهو فيهم يزاوول  
مايزاولونه من حِرف ، ويأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون ،  
ويعشى في الأسواق كما يمشون ، ثم اكتهل فكان على بصيرة من أمرهم  
كله ، سواء أكان ذلك في أحوال الحرب ، أم في أوقات السلم ، فاذا بعته  
الله فيهم ، كان على بينة من أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم وعاداتهم ، وهذا  
كله من أقوى مايساعد على نشر دعوته والاستجابة إليه ، ويحقق  
مايسير إليه الله تعالى في قوله : ( هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم  
يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل  
لفي ضلل مبين )

### بيت الرسول

قد اخطأ النجمَ ما نالت أبوته من سوؤد باذح في مظهر ستم  
الغرض من عقد هذا الفصل ، الإشارة إلى أن البيت الذي كان  
منه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بيت رفيع العباد ، عظيم الشرف ، كريم المحتد ،  
أصله ثابت وفرعه في السماء ، مشهور بالفضل ، مذكور بالكارم ، فليس  
من العجب حينئذ أن يختار الله تعالى منه رسوله محمد الذي ارسله رحمة  
للعالمين .

ذلك البيت هو بيت بني هاشم بن عبد مناف بن قصي ، الذي اجتمع  
له من شرف المحل وتمام المجد وكمال السيادة ما لم يجتمع لغيره من البيوتات  
العربية ، على عظمتها وقوة شكيمتها وشرف أصولها وفروعها ، وذلك  
أن قصيا الجد الاعلى للنبي ، قد اجتمع في يده من وظائف الرياسة والسيادة  
الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة والقيادة . وقد ورثها بنيه ،

وله مكارم أخرى سنذكر شيئاً منها في موضعه :  
وللبيت الشريف كالتسبب العريق معان قد غنى العرب بها في  
الجاهلية والاسلام عناية ليس بعدها عناية ، وقد احتفظوا بالبيوت  
والانساب وحفظوها الاغراض شتى منها : ما طبعوا عليه من الميل الى صلة  
الرحم والتعاطف والتواصل ، ومنها طلب الكفاءة في النسب والصره ،  
ومنها بيان العزة بالمكانة عند التماس المناصرة اذا دعا داعي الحرب ،  
ومنها المفاخرة والمباهاة بماثر الآباء والجدود ، وما أورثوا بينهم وأحفادهم  
من مجد وسؤدد ، كما ترى في قول جرير وهو مضمري يفاخر الفرزدق  
وهو راعي :

أن الذي حرم المكارم تغلبا      جعل النبوة والخلافة فينا  
مضراً بي وأبو الملوك جميعهم      فاعلم فليس أبوكم كأبينا  
اذا تمهد هذا فنقول .

ان رسول الله ﷺ نخبه بنى هاشم ، وسلالة قريش وصميمها  
وأشرف العرب وأعزهم نفرا ، من قبيل أبيه ومن قبل أمه ، كما أنه  
من أهل مكة بأكرم بلاد الله على الله وعلى عباده ، وينتهي نسبه  
إلى عدنان

نسب كأن عليه من شمس الضحى      نورا ومن فلق الصباح عمودا  
وليس عند المؤرخين ريب في أن عدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم  
الخاميل صلوات الله عليهما ، فهو أبو العرب العدنانية .

ولو أننا استوعبنا أجداد الرسول وذرياتهم الى عدنان ، لكننا  
بذلك قد استقصينا قبائل العدنانيين عامة ، ولو أننا جارينا القول للمأثور

عن ابن عباس رضى الله عنه وهو : أن رسول الله كان واسط النسب في قريش ، لم يك حتى من أحياء قريش إلا ولده . ثم سردنا بطون قريش وأخذها ؛ لطال الكلام كثيرا .

ولو أننا اتبعنا ماورد أيضا عن رسول الله وهو : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم ، ثم فصلنا ذلك تفصيلا وبسطناه بسطا . لا تسمع المجال جدا .

ولكن ذلك لا يمنعنا أن ندون هذا المقدار اليسير من تاريخ بعض أجداده ومن كان له أثر من اخوتهم وأبنائهم أو حفدتهم ، في سلطنة عادلة ، أو مفخرة شاملة ، أو إحياء فضيلة ، أو بث مكرمة ، ليكون ما نذكره من ذلك اشارة إلى محاسن البيت النبوى ، سواء أكانت في الجاهلية أم في الاسلام . واليك هذا الموجز :

قد أجمع العلماء على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزوه ، ونهى أن ينسب إلى من بعد عدنان من الأجداد ، ومن عدنان كانت أجداد النبي الى عبد المطالب بن هاشم . وقد اخترنا منهم ومن ذوى قرابتهم البيوت التالية :

(١) مضر بن نزار بن معد بن عدنان - وكانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز من سائر العدنانية ، وكانت لهم رياضة بمكة ، ويجمعهم نخدان عظيمان هما ، خندف وقيس عيلان ، فمن قيس بنو هوازن الألى كان منهم بنو سعد بن بكر ، آل حليمة ظئر النبي ﷺ ، ومن قيس عدوان ، آل عامر بن الظرب ، حكيم العرب بعكاظ . ومن خندف أكرم بن صيفي

وَقَطْرِيَّ بن الفُجاعة والاعراب بن سالم أبو الأغالبة ملوك إفريقية في عصر بني العباس قبل الفواطم، ومن بطون خندف بنو مدركة بن الياس ابن مضر، وهم هذيل وكنانة واسد، فمن هذيل صاهلة آل عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، وأخوه عتبة، والمسعودي المؤرخ، ومن أسد زينب بنت جحش أم المؤمنين وإخوتها.

(٢) كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الناس بن مضر، ومنهم: قريش وهم بنو النضر بن كنانة، وإنما اتسبوا إلى فهر بن مالك بن النضر، لأن عقب النضر منحصر فيه، لم يعقب من بني النضر غيره.

ومن كنانة على غير عمود النسب: بنو عبد مناة، ومنهم: البراض ابن قيس قاتل عروة الرحال، ومن بني بكر بن عبد مناة: بنو الدُّئل رهط أبي الأسود تلميذ علي بن أبي طالب في النحو، ويقال في النسبة إلى هذا الفخذ دؤلي، مهموز مفتوح، ومن بني بكر أيضا بنو صُمرة الأثلي منهم بنو غِفَار، رهط أبي ذر الغفاري، ومن مرة بن عبد مناة بنو مُدْج آل سُراقَة بن مالك، وهم قافة العرب وأعلامهم بالزجر والقيافة.

ونعود إلى فهر بن مالك وهو قريش، لأنه كان يقرش عن خلة كل ذي خلة فيسدها بفضله، فمن كان محتاجا أغناه، ومن كان عاريا كساه، ومن كان طريداً آواه، ومن كان خائفا حماه، ومن كان ضالا هداه، وكل من لم يلبه فهر فليس بقرشي.

ومن فهر غالب على عمود النسب، وعلى غيره: بنو الحارث آل

أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، أمين هذه الأمة ، وعقبة بن نافع فآلح إفريقية ومؤسس القيروان ؛ وبنو محارب آل الخطاب بن مرداس سيد الظواهر في الجاهلية ؛ وابنه ضرار بن الخطاب من فرسان الإسلام وشعرائه ، والضحاك بن قيس صاحب مرج راهط الذي قاتل فيه مروان بن الحكم حين بويع بالخلافة الاموية .

وعلى عمود النسب من غالب بن فهر : لؤي بن غالب ، وهو تصغير الألي ( بقر الوحش ) . ومن قبائل لؤي على غير عمود النسب : بنو عامر بن لؤي ، ومنهم عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذي نزل فيه (عبس وتولى) ، وهو مؤذن رسول الله بالمدينة ، ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح أمير المسلمين في فتح إفريقية أيام عثمان ، ووالى مصر بعد عمرو بن العاص . وكان ابن أبي سرح يكتب الى رسول الله ثم رجع الى مكة مرتدا ثم تاب وحسنت حاله ، ضمنه عثمان بن عفان يوم الفتح وكان رسول الله قد أراق دمه .

وعلى عمود النسب من لؤي : كعب بن لؤي ، ومنه على غير عمود النسب بطنان : بنو عدي آل عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد بن عمرو ، أحد العشرة ؛ وبنو هصيص ، وهم نخدان : جمع وسهم .

فمن سهم : العاص بن وائل ، وعمرو بن العاص ، ونبيته ومنبه ابنا الحجاج ، قتلا يوم بدر كافرين ؛ ومن جمع : عثمان بن مظعون ، الذي هاجر الهجرة تين وشهد بدرأ ، وصفوان بن أمية بن خلف ، الذي كناه رسول الله (أبا وهب) .

وعلى عمود النسب مرة بن كعب ، ومنه على غير عمود النسب

بطنان : بنو تيم . وبنو يقظة ، فمن تيم : عبد الله بن جُدعان سيد قريش في الجاهلية ، وصاحب الدار التي عقد فيها حلف الفضول ، وأبو بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ ، وأنيسه في الغار ، وصهره وخليفته رضى الله عنه وأرضاه ، وكذلك طاحنة بن عبيد الله الصحابي الذي قتل في واقعة الجمل .

ومن يقظة : بنو مخزوم ، ومنهم أم سلمة أم المؤمنين ، بنت أبي أمية بن المغيرة ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوجها قبل رسول الله ، وخالد بن الوليد بن المغيرة ، سيف الله ، وقد انقرض ولده ، ومن بني مخزوم : سعيد بن المسيب تابعي ، وأبوه المسيب من أهل بيعة الرضوان ، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ، قتل يوم بدر كافرًا ، وابنه عكرمة ، وكان صحابيا ، وفاطمة بنت عمر بن مخزوم ، جدة الرسول أم أبيه عبد الله ، والأرقم بن أبي الأرقم صاحب الدار التي كان يأوي إليها النبي وأصحابه سرا قبل أن يفسخ الإسلام .

وعلى عمود النسب من مرة : كلاب بن مرة : ومنه على غير عمود النسب بطن واحد ، وهم زهرة ، آل السيدة آمنة أم الرسول ﷺ ، وآل كل من عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث ، وهو ابن أخي السيدة آمنة

وعلى عمود النسب : قُصَيٌّ ، واسمه زيد ، ويدعى مجعًا ، لأنه لما أخرج خزاعة من مكة ورأى أنه صريح ولد اسماعيل عليه السلام ، وأنه أحق من خزاعة بالبيت الحرام وبني دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت الحرام ، وتجمعت قريش بمكة سمي مجعًا ، لأنه جمعهم ولم

يجعل معهم غيرهم

وكانت البطون التي اجتمعت اثني عشر بطناً وهم : بنو الحرث ،  
وبنو محارب ، وبنو عامر ، وبنو عدي ، وبنو سهم ، وبنو جميع ،  
وبنو تيم ، وبنو مخزوم ، وبنو زُهره ، وبنو أسد ، وبنو عبد الدار ،  
وبنو عبد مناف

وقطع مكة أرباعاً بينهم ، فأُنزل كل بطن منهم بمنزله الذي صبحهم  
به الاسلام ، وأُنزل فريقاً منهم البطحاء ، فسموا بقريش البطاح ، وفريقاً  
منهم ظواهرها ، فسموا بقريش الظواهر ، وولى أمر الكعبة وأقام  
بأم القرى سيداً مطاعاً ، فكان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب  
ملكاً ، وكان بيده وظائف تتسابق القبائل وتتنافس لحيازة الواحد  
منها ، فتشرف بها ويعلو شأنها ؛ فما ظنك بقصي وقد اجتمعت كلها في  
يده ، وهي : السقاية والرفادة والندوة ( البرلمان ) والحجابة واللواء  
والقيادة .

وقد تيمنت قريش برأي قصي ، فصرفوا مشورتهم اليه في قليل  
أمورهم وكثيرها ، واتخذوا دار الندوة في استشاراتهم ، فكانت مجتمع  
الملا من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم ، ثم تصدى لاطعام الحاج  
وسقايته ، لما رأى أنهم ضيف الله ، وزوار بيته ؛ وفرض على قريش  
خرجا يؤدونه اليه ، زيادة على ما كانوا يردفونه به ، وكان أمره في قومه  
كالدين المتبع .

ثم هلك قصي ، وقام بأمره في قومه بنوه من بعده ، وأقاموا على  
ذلك مدة ، وسلطان مكة لهم ، وأمر قريش جميعاً ، وكان لما أسن قصي ،

أوصى لابنه عبد الدار بما كان بيده من تلك الوظائف ، يجبر له بذلك ما نقصه من شرف أخيه عبد مناف ، الذي شرف في حياة أئمه قصى ، وذهب شرفه كل مذهب ، ولما ماتا أراد بنو عبد مناف حيازة هذه الوظائف ، وأخذها من بني عمهم ، وقام بامرهم عبد شمس أسن أخوته ، فكادت تقع الحرب بين الفريقين ، لولا أنهم اصطلحوا على أن تكون الرفاة والسقاية هاشم بن عبد مناف ، يرثها عنه بنوه ، ومنهم عبد المطلب بن هاشم ، ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء ، فرضى الفريقان وتناجز الناس .

عود - وإنما سمي قصى بذلك ، لأن أمه تقصت به مع زوجها ربيعة ابن جذام القضاغي إلى أرض عذرة - ومنه على غير عمود النسب بطنان : بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو عبد الدار ، فن بنو أسد خديجة بنت خويلد بن أسد أم المؤمنين ، والزبير بن العوام بن خويلد حوارى رسول الله وأحد العشرة ، وحكيم بن حزام بن خويلد ، عاش سنتين سنة في الإسلام ،

ومن بني عبد الدار : عثمان بن أبي طلحة ، الذي دفع إليه رسول الله يوم فتح مكة مفتاح الكعبة ، ولم يزل إلى الآن في بني شيبه بن أبي طلحة .

وفي بني عبد الدار هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وهو بالضرورة غير هاشم بن عبد مناف بن قصى . جد رسول الله ؛

ولقصى على عمود النسب : عبد مناف ، وهو صاحب الشوكة في قريش ، وكان يسمى قر البطحاء لحسنه وجماله ، وله على غير عمود

النسب ثلاثة بطون ،

بنو المطلب ، ومنهم عبيدة بن الحرث بن المطلب البدرى ، وشافع  
جد الامام الشافعى ، وقيس بن خزيمة بن نوفل الصحابى ، وابنه عبد الله  
ابن قيس .

وبنو نوفل ، ومنهم جبير بن مطعم ، وكان ممن قام فى امر صحيفة  
قريش ، وكان رسول الله يشكر له ذلك .

وبنو عبد شمس ، ومنهم بنو أمية الاصغر ، يقال لولده العبالآت ،  
لان أم أمية هذا ، عبالة ، من البراجم من تميم ، ومنهم هند بنت عتبة  
أم معاوية وزوج أبى سفيان ، وبنو أمية الاكبر بن عبد شمس ، ومنهم  
ذو النورين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية ، أحد العشرة ، وزوج  
بنتى الرسول ﷺ ، ومروان بن الحكم وأبو سفيان وأبناؤه وبنته أم حبيبة  
أم المؤمنين ، ومن بنى عبد شمس : أبو العاص بن الربيع ، زوج زينب  
بنت رسول الله ، وكان النبى يثنى عليه فى صهره خيرا . وعقبة بن أبى  
معيط بن أمية ، وقد قتله رسول الله ببدر صبورا ، وابنه الوليد صحابى .

ولعبد مناف على عمود النسب : هاشم وهو صاحب البيت الذى  
ينسب اليه رسول الله ﷺ ، وكان لكل واحد من هؤلاء الاربعة بنى  
عبد مناف شأن عظيم فى الأحوال الاقتصادية ، بين الحجاز وبين البلاد  
الأخرى ، وكذلك فى الأحوال الحربية :

(١) فكان هاشم الحلف الذى عقده من هرقل ، لتختلف تجارتهم  
إلى الشام آمنة ، وكان يرحل صيفا إلى غزة وبها مات .

(٢) وكان للمطلب بن عبد مناف عقد حلف النجاشى ليتجروا

في بلاده . وقد هلك بردمان من اليمن .

(٣) وكان لنوفل الخلف من كسرى الأتجار في العراق .

(٤) وكان لعبد شمس قيادة الجيش ، وقد ورثها عنه ابنه أمية ،

فحرب بن أمية ، فأبو سفيان بن حرب ؛ وقد قاد قريشا يوم بدر عتبة ابن ربيعة ، إذ كان أكبر من أبي سفيان ، بل أكبر رجال هذا البيت في ذلك الحين ؛ وكان أبو سفيان غائبا في غير قريش التي من أجلها وقعت الواقعة ؛ وفي أحد والأحزاب قاد قريشا أبو سفيان

هذا وقد انقرض ولد هاشم من الذكور إلا من كان علي عمود النسب وهو عبد المطلب ؛ وكان لهاشم : أسد بن هاشم ، ومنه فاطمة بنت أسد ، أم علي بن أبي طالب ، وهي أول هاشمية تزوجت هاشميا فولدت له

ثم نعود إلى ذكر هاشم وابنه عبد المطلب ، فنقول :

ان هاشم كان قد قدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو ، أحد بني النجار ، وكان قد خرج في غير لقريش فيها تجارات ، فلما نزلوا المدينة فباعوا واشتروا في سوقها ، نظروا إلى امرأة على موضع مشرف من السوق ، وهي تأمر بما يشتري ويبيع لها ، فسأل عنها : أيم هي أم ذات زوج ؟ فقيل له أيم ، وكانت لشرفها في قومها لاتنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهمت رجلا فارقتة ، فخطبها هاشم ، فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها ، ودخل بها وصنع طعاما ، ودعا من هنالك من أصحاب العير ، وكانوا أربعين رجلا من قريش ، فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم ، وأقام أياما مع سلمى ، فعلمت منه

بعبد المطلب ، ثم خرج بأصحابه إلى الشام حتى بلغ غزوة فاشتكى ومات هنالك ، فدفنوه وعادوا بتركته إلى ابنه عبد المطلب ، وكانت أمه حين ولده وجدت برأسه شعرات بيضا ، فسمته شيبه .

وكان هاشم حين خرج قد أوصى إلى أخيه المطلب بن عبدمناف ، وكان بنوه وبنو هاشم يدا واحدة لم يفترقوا في جاهلية ولا اسلام ، كما كان بنو نوفل وبنو عبد شمس يدا واحدة ، فظل المطلب يقوم بأمر مكة حتى كبر شيبه ، وبلغ المطلب مكانه ، فذهب إلى المدينة وعاد به إلى مكة في قصة عن ثابت أبي حسان بن ثابت وهي :

قيل قدم ثابت بن المنذر مكة معتمرا ، فلقى المطلب - وكان له خليلا - فقال له لو رأيت ابن أخيك شيبه فينا ، لرأيت جمالا وهيبه وشرفا ... فقال المطلب : لأمسى حتى أخرج اليه فاقدم به ، فقال ثابت : ما أرى سامي تدفعه اليك ولا أخواله ، هم أضنّ به من ذلك ، وما عليك أن تدعه فيكون في أخواله حتى يكون هو الذي يقدم عليك إلى ما هبنا راغباً فيك ؟ فقال المطلب : يا أبا أوس ، ما كنت لأدعه هنالك ويترك ما أثر قومه ، وسطته ونسبه وشرفه في قومه ما قد علمت ، ثم خرج المطلب فورد المدينة ، فنزل في ناحية وجعل يسأل عن شيبه حتى وجدته يرعى في فتيان من أخواله ، فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ، ففاضت عيناه وضمه إليه وكساه حلة يمانية ، وعرفه بنفسه فأرسلت سامي إلى المطلب فدعته إلى النزول عليها ، فقال شأني أخف من ذلك . ما أريد أن أحل عقدة حتى أقبض ابن أخي وألحقه ببلده وقومه ، فقالت : لست بمرسلة معك ، وغلظت عليه ، فقال المطلب لا تفعل ، فاني غير منصرف حتى

أخرج به معى ، ابن أخى قد بلغ ، وهو غريب فى غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا ، والمقام ببلده خير من المقام ههنا ، وهو ابنك حيث كان ، فلما رأته غير منصور حتى يخرج به ، استنظرته ثلاثة أيام ، فتحول المطلب اليهم فنزل عندهم ، فأقام ثلاثا ، ثم احتمله وانطلق به ، فلما دخل مكة ، قالت قريش : هذا عبد المطلب ، فقال المطلب : ويحك هذا شيبه : ابن أخى هاشم .

ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لشيبه أنت يابن أخى أولى بموضع أبيك ، فقم بأمر مكة ، فقام مقام المطلب وشرف ، وأطعم الطعام ، وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كان قومه يقيمونه بمكة من قبله . فأقرت له قريش بالشرف والسيادة عليها ، وكانت تسميه الفضل لسماحته ، وقد تزوج النساء فولدن له الأولاد وكان منهم عبد الله أبو المصطفى وأحد عشر من أخوته وهم عمومة الرسول ﷺ .

وفى أيام عبد المطلب حدثت حادثة القيل ، وخلاصتها أن ابرهة عامل النجاشى على اليمن ، أراد أن يهدم الكعبة لسبب — فيما يظهر لى — سياسى ، ذلك أنه رأى وفود العرب وغيرهم تتأهب كل عام إلى هذا البيت لتحيته ، وهذا بطبيعته اجتماع عربى قد يؤدى إلى اتفاق كلمة العرب وتضامنهم ضد كل من يغير على ناحية من نواحي جزيرتهم ، فأراد أن يصرف حاج العرب إلى كنيسة (القليس) التى بناها ، فيمتنع هذا الاجتماع السنوى للعرب بمكة ، ثم قصد مكة لهدم بيت الله ، وأرسل خيلا فأغارت على ابل لعبد المطلب ، فذهب اليه فردها عليه ، وعاد فأمر قومه بالجللاء عن مكة إلى الجبال والشعاب ، وقال ان للبيت رباً يحميه ،

أما أبرهة ، فقد بعث إلى عبد المطلب يقول : ماجئت لحربكم ، إنما جئت  
لهدم هذا البيت ، فقال عبد المطلب : ونحن لا نريد حرباً ، ومالنا بذلك  
من طاقة ، فلما كن الجيش على ثلثي فرسخ من مكة ، أرسل الله عليهم  
طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فخرجوا هاربين يتساقطون  
بكل طريق ، حتى هلكوا ، وحى الله حرمة ، وأعز آل بيت نبيه ،  
حتى دانت لهم العرب ، واعتقدوا شرفهم وفضلهم ، وقالوا : أهل الله  
قابل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم .

حفر زمزم — ولما فرج الله عن عبد المطلب ، ورجع أبرهة خائباً ،  
رأى رؤياً ، استدبل منها على موضع بئر زمزم ، وكانت جرهم لما أُخْرِجَتْ  
من مكة كرهاً ، قد عمدت إلى نفائس فجعلتها في زمزم وطمتها ، وبالغت  
في ذلك ، فلم نزل مجهولة إلى أن استدبل عليها عبد المطلب بامارات ،  
فعمد إلى حفرها ، فاعترضت قريش دون ذلك ، وحالوا بينه وبين ما أراد ،  
وكان معه ولده الحرث وحده إذ ذاك ، ولم يكن له ولد سواه ، فتذر  
لئن جاء له عشرة بنين ، وصاروا له أعواناً ، لئذ يحزن أحدهم قربانا لله عند  
الكعبة ، ثم قام ليحفر ، فنعوه ، فلما رأوا أنه غير تارك ، خلوا بينه  
وبين الحفر وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له طيُّ البئر ،  
فكبر ، فلما تمادى به الحفر ، وجد تلك النفائس التي دفنتها جرهم ،  
فقالت قريش : أنا معك في هذا شرك ، فامتنع وحلّ باب الكعبة بما  
وجد من الذهب ، وأنتم حفر زمزم ، وأقام سقايتها للحجاج ، فكانت له  
نخراً وعزاً على قريش وعلى سائر العرب ، وعفّت على سائر آبار كانت  
قبلها ، وانصرف الناس إليها ، لمكانها من البيت الحرام ، وافتخر بها

بنو عبد مناف على قريش وعلى غيرهم .

ذبح أحد بنيهم - ولما تكامل بنو عبدالمطلب عشرة ، وذلك بعد حفر زمزم بثلاثين سنة ، وقر الله عينه بهم ، تذكر نذره ، فجمع أولاده وقص القصة ودعاهم إلى الوفاء ، فقالوا انا نطيعك ، وأقرع بينهم فخرجت القرعة على عبد الله أبي رسول الله ، فتجبر في شأنه ، ولكنه عاد فأخذه وأراد أن ينحره ، فقامت إليه سادة قريش تقول له : لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه وتكون سنة ، وقال المغيرة المخزومي - وكان عبد الله ابن اخت القوم ، فقال والله لا تذبحه أبدا ، حتى تُعذر فيه إلى ربك ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه ، وقالوا له انطلق إلى فلانة الكاهنة فالفروها بخير ، فقالت قريبه وعشرة من الابل وأجبلوا القداح ، فان خرجت على الابل فذاك ، والا فزيدوا في الابل ، حتى تخرج عليها القداح ، وانحروها حينئذ فهي الفدية عنه ، وقد رضى الحكم ، ففعلوا ، وبأخت الابل مائة ، فنحروها عبدالمطلب وتركها لا يصد عنها انسانا - وقد صحح عن رسول الله ﷺ أنه قال : أنا ابن الذبيحين ، فإله كان يشير إلى هذه القصة وقصة اسماعيل عليهما السلام .

وهذه القصة تروى من وجود شتى ، ولعلمها موضوعا على سبيل المثل ، لتدل على أن عبدالمطلب كان ممن يوفون بالنذر ، وكان الله قد أعطاه من الشرف ما لم يعط أحدا ، فسقاه زمزم ، وحكمته قريش في أموالها ، وأطعم في المحل حتى الطير في وكناتها ، والوحش في شعاب الجبل ، ورفض عبادة الأوثان ووحد الله جل اسمه . ووفى بالنذر وسن سننا جاء القرآن بأكثرها ، والسنة من رسول الله بها ، ومنها ألا تنكح ذات محرم ،

وَأَلَّا تُؤْتَى الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ . وَنَهَى عَنْ قَتْلِ  
 الْمَوْعُودَةِ ، وَحَرَّمَ الْخُرْ وَالزَّانَا وَالْمُبَاهِلَةَ ( الْمَلَاعِنَةُ ) وَأَلَّا يُطُوفَ بِالْبَيْتِ  
 عَرِيَانًا ، وَمِنْهَا إِضَافَةُ الضَّيْفِ ، وَأَلَّا يَنْفَقُوا إِذَا حَاجُوا الْأَمَانَ طَيِّبِ  
 أَمْوَالِهِمْ ، وَمِنْهَا تَعْظِيمُ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، وَكَانَ لِكُلِّ وَادٍ مِنْ بَنِيهِ شَرَفٌ  
 وَذِكْرٌ ، وَفَضْلٌ وَقَدْرٌ وَمَجْدٌ ، وَحِجَّ أَكْثَمُ ابْنِ صَمِينٍ فَرَّاهُمْ فَقَالَ مِنْ كَلَامِ  
 « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ أَنْ يَنْشِئَ دَوْلَةً أَنْبَتَ لَهَا مِثْلَ هَؤُلَاءِ ، هَؤُلَاءِ غِرَاسُ  
 اللَّهِ لِأَغْرَاسِ الرِّجَالِ »

عمومته : وأعمامه صلى الله عليه وسلم تسعة أو أكثر ، أصغرهم عبد الله ،  
 وأكبرهم الحرث ، ومن بنيهِ : أبو سفيان بن الحرث ، ونوفل وربيعة ،  
 وكلهم أسلموا ؛ ومنهم أبو طالب ، وأولادُ : طالب وعقيل وجعفر وعلي  
 ومن بني علي : سيداً شباب أهل الجنة : الحسن والحسين ، أمهما  
 فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، وأخوهما لأبيهما محمد بن الحنفية ، وقد  
 صار لكل منهم بيت ، وقد تجمع هذه البيوت كلمة الطالبيين أو العلويين  
 الأشراف ، وقد يجمع فريقاً من هذه البيوت كلمة الفواطم أو الفاطميين ،  
 ومفاخر الحسينيين والحسينيين وبيوتهم ورجالاتهم ، كل ذلك أكثر من  
 أن يحصى .

ومنهم الزبير ( بفتح أوله أو بصيغة التصغير ) وابنه عبد الله الذي  
 كان يقول له رسول الله : ابن عمي وحبي ؛ ومنهم أسد الله وأسدرسوله  
 سيد الشهداء حمزة ، وكان أخا رسول الله من الرضاع ، أرضعتها ثويبة ؛  
 ومنهم العباس وكان له كأبيه عشرة أولاد منهم الفضل وعبد الله بن  
 العباس ، وكان أخذ الأجواد ، أمهم أم الفضل لبابة الكبرى الهلالية ،

أخت أم المؤمنين ميمونة ، والببيت والشرف من بني العباس في بيت  
عبد الله بن العباس ؛

ومنهم أبو طيب ، وقد أسلم من بنيه يوم الفتح اثنان ،  
والرسول أربع عمات : أم حكيم ، وكانت عند كريز بن ربيعة بن  
حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، فولدت له عامرا .

وعاتكة ، وكانت تحت أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، فولدت له  
عبد الله وزهيرا أخوَي أم سلمة أم المؤمنين لأبيها وابن عم أبي جهل .  
وبرّة ، وكانت عند أبي رهم العاصري ، فولدت له أبا سبرة ، ثم خلف  
عليها عبد الأسد المخزومي ، فولدت له أبا سامه ، الذي كانت عنده أم سلمة  
قبل رسول الله ؛ وأبو سامة أول من هاجر إلى الحبشة هو ووجه أم سلمة  
وأميمة ، وكانت تحت جحش بن رئاب من بني أسد بن خزيمه ،  
وهي أم عبد الله وعبيد الله وأحمد وزينب وأم حبيبة وحمنة ، وقد أسلم  
الجميع وهاجر ذكرا نُهِمُّ إلى الحبشة ، وتزوج رسول الله من البنات زينب  
صفية ، وكانت أخيرا تحت العوام بن خويلد ، أخو السيدة  
خديجة ، فولدت له الزبير وغيره ، وقد أسلم الزبير وهو ابن ثمان ، ولم  
يتخلف عن رسول الله في غزوة غزاهما ، وهو أول من سل سيفا في  
سبيل الله .

وبعد فهل رأيت مما مضى أن رسول الله ﷺ كان من بيت مجد ،  
جم الفضائل عظيم الآثار ، واسع الثروة من الرجال الأفاضل الذين شادوا  
صرحه ورفعوا أعلامه منذ أزمان ، ثم رسموا لأعقابهم من بعدهم  
مناهج السيادة والعزة والسلطان ، إلى أن وضح نور الله من أفقهم ،

وسرى خبر السماء الى بيوتهم ، واختلفت الملائكة الى أحيائهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

### أخلاق الرسول

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ، كان خلقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه .

وقد بين علماء الاخلاق أن صفات الجلال والكمال في البشر نوعان نوع ضروري اقتضته الجبلة ، ونوع مكتسب ، وهو ما ليس في أصل الخلقة ، فيحصله المرء تحصيلاً بالمجاهدة والرياضة والتعلم ، ومن الاخلاق ما قد يكون مزيجا من النوعين ، وعلماء الاخلاق وعلم النفس يجمعون على أن الخلق حال للنفس تصدر عنها الأفعال من غير فكر ولا روية ، ويكادون يجمعون على امكان تغيير الخلق بالمران والرياضة ، ولكنه يكون صناعيا لا طبيعيا ، إذ ليس التكحل في العينين كالتكحل ، فالفطري أقوى وأثبت ، وتغييره أو ازالته أبطأ وأصعب ، وليس للمرء اختيار فيه ، وإنما هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، سواء أكانت حسنة أم غيرها ، والثانية مذمومة ، والأولى هي التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها ، وتعظيم المتصف ولو بالواحد منها ، فضلا عما فوقه

وقد أثنى الشارع في كل عصر عليها ، وأمر بها ، وجعل السعادة الدائمة للمتجلى بها . وَعَدَ اللهُ لا يخلف الله وَعَدَهُ - ووصف بعضها بأنها أجزاء من النبوة ، وهي التي تسمى بالخلق الحسن ، وهي ذاك الجود الالهي ، والخصوصية الربانية ، التي فطر الله عليها انبياءه ورسله .

( ولقد سبقتم كلمتنا لعبادنا المرسلين ) ، ( ولقد آتينا إبراهيم رشده  
من قبل وكننا به طالين ) ( وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم  
فعل الخيرات ) ( أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده )

وأشار اليها رسول الله ﷺ فيما روى عنه إذ قال : لما نشأت ،  
بُغضت إلى الأوثان ، وبُغض إلى الشعر ، ولم أُم بشيء مما كانت  
الجاهلية تفعله الامرتين ، فعصمني الله منهما ، ثم لم أعد ، وهكذا تظل  
الفطرة السليمة تزكو ، فتنمو معها الاخلاق الكريمة ، حتى تبلغ في النبي  
ذروتها ، فيصطفيه الله حينئذ ، ليكون وسيلة فيما بينه وبين خلقه ،  
وليكون قدوة فيما يقول ويفعل ، رجاء أن يتخلقوا باخلاقه ويروضوا  
أنفسهم وبجاهدوها جهادا ، حتى يسوهم إلى الفضيلة ، فيتجافوا عما  
طبعت عليه النفوس البشرية من الميول المهلكة أو الرذيلة ، وهذا هو  
المكتسب من الاخلاق ؛ وقد يوجد من الناس من يكون مفطورا على  
شئ من أخلاق الأنبياء دون جميعها ، وهو لاء بطبيعة فطرتهم يسهل  
عليهم اكتساب بقيتها بعناية من الله أيضا ، كما تشهد ذلك في  
بعض الأطفال الذين ينزعون منذ نعومة أظفارهم ، إلى الصدق أو الاقدام  
أو السماحة أو الشجاعة ، كما نجد منهم من يتوجه بطبيعته إلى ضدها ،  
فبالرياضة والمران يعتدل منحرف الاخلاق ، ويستجذب المعلوم منها  
وكل ميسر لما خلق له .

وقد قال بعض العلماء أن الخلق الحسن جبلة وغريزة وفطرة ،  
وعاينه قول رسول الله : كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة  
والكذب .

ولكن الجمهور على أن الاخلاق حسنة أو سيئة كلها فطرية ، وإن كانت تتغير .

والاخلاق الفاضلة لا تدخل تحت حصر ، وكل واحد منها على درجات ، وأساسها في الانسان العقل ، الذي تنبعث عنه المعرفة والعلم ، فيتفرع عنهما ثقب الرأي ، وجمودة الفطنة ، وصدق الظن ، والنظر للعواقب ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل ، وهذه كلها أوصاف توافرت في نبينا ﷺ ، فهي دليل رجحان عقله ، واتساع دائرة علمه وبصيرته ، من غير مدارس ولا مطالعة ، ولا جالس الى معلم ، وإنما هي فطرة الله الذي أحسن كل شيء خلقه ( وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما )  
أما بقية الاخلاق الكريمة الطاهرة الفاضلة فإن الذي يقر أسيرته يستنبط مالا يدخل تحت حصر منها .

فالعلم عند القدرة ، والصبر على احتمال المكروه ، من أخص صفاته وأخلاقه ، وما خير بين أمرين قط ، إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها ، وما أجمل ما كان يدعو الله به كثيرا وهو : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، دون ( رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ) كما قال نوح عليه السلام ، مع أن قوم رسول الله كثيرا ما آذوه وجهلوا عليه ، ألا يؤخذ من دعائه هذا ميله إلى العفو عنهم والشفقة عليهم ، والشفاعة لهم ، والاعتذار عنهم لمولاه بأنهم لا يعلمون ؟ أليس هذا منتهى الكرم والفضل ؟ حقا لقد كان ﷺ

أبعد الناس غضبياً وأسرعهم رضا ، كما أنه كان في أخلاق أخرى كالجود والكرم والسخاء لا يوازي ولا يبارى ، وكذلك في النجدة والشجاعة ، والحياء والانعضاء ، وحسن العشرة ، وبسط الخلق ، والشفقة والرحمة والرفقة على جميع الخلق ، ولو كانوا من أعدائه ، وكذلك في صلة الرحم والوفاء بالعهد ، والتواضع ، على علو منصبه ورفعة رتبته ، والعدل والامانة والعفة وصدق اللهجة ، وطول الصمت والتؤدة والزهد في الدنيا وطاعة الله والخوف منه ، وغير ذلك مما يتسع مجال سرده ، ولو كان البحر مدادا لنقد البحر قبل أن نستوعبه

وليس عجيباً أن يكون رسول الله على هذه الاخلاق قبل أن ينزلاً وينزل الله عليه الكتاب والحكمة ، ويهديه صراطاً مستقيماً ، ويقص عليه أحسن القصص ، ويذكره بأخبار السابقين ممن اتبعوا رضوان الله فنعموا بالسعادة ، ومن كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، ولقد وصفه قومه قبل النبوة بالأمين ، كما علمت فيما مضى ، ثم أتى عليه مولاة بعد ذلك بقوله ( وانك لعلى خالق عظيم ) مؤكداً ذلك بجميع أساليب التوكيد .

والذى ينبغى أن تعلمه أن رسول الله كان من كل فضيلة في وسطها المحمود ، لاني أخذ طرفيها للذمومين ، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين السرف والبخل وهكذا

لا يقال : قد نشأ النبي ﷺ بين أتراب من نبت الجاهلية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، فكان حرياً أن تنطبع نفسه بما يرى ويسمع ، من أول نشوئه الى كهولته ، وأن يتأثر عقله بالبيئة التي من حوله ، فكيف

كان على هذه الدرجة من سمو الاخلاق .  
 والجواب ما علمت ، من أن الانبياء قد فطروهم الله على الاخلاق  
 الفاضلة ، فهي فيهم خلقية ، لا عن تقليد ولا محاكاة ولا تعلم ، ورسول  
 الله بنى من هؤلاء ، جرى الأمر فيه على غير السنن المألوف ، من تأثير  
 البيئة ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادر اليه حسن الخليفة ، وكان كلما  
 تقدمت به السن ، زادت فيه الرغبة عما كان عليه قومه مما لا يتفق  
 وما طبع عليه من مكارم الاخلاق ، ومحاسن الصفات ، وقد حاطه الله  
 بعنايته ، واختصه من بين بني قومه بالعقل الراجح ، الذي عصمه ما  
 وقعوا فيه ، فاكتهل كاملا وهم ناقصون ، ساما وهم مشاغبون ، صحيح  
 الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم شريرون ، مؤمنا بيوم  
 الحساب وهم بلقاء ربهم كافرون ، على صراط مستقيم ، وهم في ضلال  
 مبين ، (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا هواهم؟)  
 تلك آثار عناية الله برسوله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته  
 وعليه فلم يك رسول الله ملكا ، بل كان بشرا كاملا مكمل . بلغ  
 في المكارم أعلى ذراها ووصل إلى منتهاها . وقد يعد المرء فاضلا بخلق  
 واحد فاضل يقتنيه ، فما بالك بمن جعل الله الفاضل كلها فطرة فيه ،  
 لقد كان المثل الأعلى في كل فضيلة ، فجدير به أن يؤهل لزعامة الدنيا ،  
 ويوكل بمصالح الخلق ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .